محمد المثل الكامل

للدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق

للعظمة أسبابوأمارات ولها مجالها وميادينها ، فكل عظيم ممن عرفتهم الانسانية نراه أخذ بحظ منها ، وظهر فى مجال من مجالاتها ، وتجلت عظمته فى ميدان من ميادينها . ومحمد صلى الله عليه وسلم فرد من خلق الله وبشر مثلنا ، ولكن الوجود الواقعى لا يعرف تفاوتا بين أفراد الجنس الواحد كما يعرفه بين أفراد البشر ، فمنهم من يسمو الى أرفع الدرجات ومنهم من يسفل الى أحط الدركات ، والكل مع هذا وذاك بشر من خلق الله ..

وهذا التفاوت فى الدرجات من أدناها الى أعلاها فضل من الله يؤتيه من يشاء ، ولكن الله جلت حكمته يصطفى من خلقه من يشاء ، فهو لا يختار لذلك الا من تؤهله نفسه وترشحه سيرته لان يكون من المصطفين من خلقه ومحمد صلى الله عليه وسلم جمع الفضل كله من أطرافه ، وأعدته سيرته لنيل المجد من كل نواحيه ، ولا غرو ! فقد كانت سيرته المثل الكامل للعصاميين العظماء . انه كان ، وهو يتدرج من صباه الى شبابه فرجولته رجلا لا يشركه غيره فى صفاته وخلاله ، ولا يدانيه آخر فى مقوماته التى هيأته ليكون رسول الله للعالمين كافة الى آخر الزمان ..

ولنا أن تقرر بحق أن محمدا كان عصاميا فى نشأته ، كما كان المثل الأعلى للعظمة بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى ومدلول . فقد تكون العظمة فى النجاح فى الحياة بجمع الكثير من تراثها ، وقد تكون فى الوصول الى الجاه والسلطان ، كما قد تكون فى تفرد الانسان من بين لداته بالبعد عما يكون عليه قومه من باطل والعمل على الوصول للحق وللاهتداء بنوره ، بلا باعث الا الرغبة المضطرمة فى نفسه للوصول اليه ولا عدة الا الجهاد فى سبيله ، وهكذا كان محمد فى نشأته المثالية وسيرته الخصبة الزكية ..

ولد محمد من أسرة عريقة الحسب نبيلة النسب ، ولكنها مع هذا لم ترزق حظا وافرا من الثراء ، فكان لابد من أن يعتمد بنوها على أنفسهم فى مواجهة الحياة وتكاليفها . ثم كان أن فقد أباه ولما ير بعد نور الحياة ، فولد يتيما ، وان كان يتيما فريدا فى خصائصه بين أترابه ، ثم لم تلبث أمه السيدة آمنة أن لحقت بأبيه وهو فى الخامسة من عمره ، فكفله جده

عبد المطلب ثم عمه أبو طالب ، وهكذا تضاعفت عليه الأرزاء ، ولكن عمه خففها بشديد رعايته له وحنوه عليه . فقد خلطه بولده ، وقدمه عليهم ، وخصه بمزيد عطفه وتقديره .

ودرج محمد الصبى فى مدارج الحياة ، وأصر على أن يشارك عمه مشاق الحياة ، وكان من هذا أن أصر على الارتحال معه الى الشام للتجارة ابتغاء الربح منها ، وكان عمره حين ذاك نحو الثلاث عشرة سنة ، وفى هذا ما يلفتنا الى ما أخذ نفسه به وهو فى فجر الحياة ، من الاعتماد على نفسه والتطلع الى معرفة العالم والناس ..

ولما عاد من رحلته تلك أخذ نفسه بمواصلة العمل فكان راعيا للغنم حينا ، وفى هذا كان متبعا دون أن يدرى سنن عدد من اخوانه الانبياء الذين سبقوه ، فهل كان ذلك مقدمة على التعود على سياسة الناس ورعايتهم والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟!

وناحية أخرى تلفتنا الى ضرب جديد طريف من عظمته ، فقد كان قومه غارقين فى الضلال والأوهام ، وكان لداته من الشبان ذوى الحسب الاصيل يمتعون أنفسهم بالكثير من لذات الحياة ونعيمها ، أما هو فقد كان نسيج وحده لا يرغب فيما كان يرغب فيه أمثاله ، بل كان متطلعا الى نواح أسمى من زينة هذه الحياة ، تعنى الوصول الى الحق فى المسائل التى تشغل العباقرة ، نعنى مسائل الالوهية والدين ..

روى أصحاب السيرة الصادقة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة واسمر بها كما يسمر الشباب ؟ فقال : افعل . فخرجت حتى اذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى الا حر الشمس ، فعدت الى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بعده بسوء » .

وهكذا نرى محمدا يرعى الغنم وهو يافع ، عظيما عصاميا فى سيرته ونهجه فى الحياة ، مترفعا عن دنس الجاهلية ، وتراه يصون نفسه عن كثير من طيباتها التى يسعى اليها أمثاله بكل سبيل ، ويتسامى بنفسه الى الدرجات العلى فى كل ناحية من نواحى الحياة ..

وهنا نشير الى مشاركته فى حرب « الفجار » التى نشبت دفاعا عن قداسة الاشهر الحرم ، فقد قاتل فيها أو أعان المقاتلين ، ولما يبلغ العشرين من عمره ، كما نشير الى اسهامه فى « حلف الفضول » انتصارا للمظلوم من الظالم القوى ، وقد قال فيه بعد أن شرفه الله برسالته : « لقد

شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » ..

وحين استقبل الحلقة الثالثة من عمره كانت سيرته مضرب المثل ، حتى دعته السيدة خديجة وكانت ذات فضل ومال وجمال ـ الى الزواج منها ، وذلك لما خبرته من أمانته واكتمال رجولته ، فأجاب وكان فى هذا الخير الكثير لها وله ، ولكنه ظل مع ذلك مكافحا مجاهدا ولم يركن الى ثرائها العريض ..

وبعد هذا كله ، نرى المثل الكامل لعظمته وعصاميته فى أخذه نفسه بالتأمل فيما عليه قومه ، وفيما وراء ذلك من الحق ، فكان يختلى بنفسه شهر رمضان من كل عام فى غار « حراء » ، وكانت نفسه الكبيرة تتألم مما عليه الناس من ضلال ، وتشرق على العالم من عليائه ، ثم تحس الحسرة والألم لعدم الاهتداء الى مخرج من هذا الضلال الذى شمل الناس جميعا ، ولم يلبث بعد ذلك الا قليلا حتى شرفه الله برسالته العظمى للعالم كله ، فوجد فى هذه الرسالة الالهية ما كان يتشوق له ويتطلع اليه زمنا طويلا وبها ظفر العالم بالهدى والدين الحق ..

الاحتفال بهذه الذكرى العظيمة

ان هذا الدين الحق لم ينزل من السماء الى الأرض لنكتفى بالاشادة به دائما وبأمجاده على أنه تاريخ من التاريخ ، ولكن لنذكر به ونعمل بهديه ونستلهمه فى كل ما نأتى ونذر . فان الله قد أنقذ بهذا الدين البشرية من الضلال ، وجعل الناس جميعا أحرار سواسية مهما اختلفوا فى الغنى والجاه والسلطان ، وآتاهم به الهدى والكتاب العظيم الذى حوى عز الدنيا وسعادة الآخرة من عقيدة وتشريع وأخلاق ..

ان الاحتفال بهذه الذكرى المقدسة العظيمة يكون بالأعمال لا بالاقوال وحدها ، بأن نعمل على أن يكون مجتمعنا مجتمعا اسلاميا حقا بكل مقوماته ، وهذه المقومات هى العقيدة والشريعة والاخلاق ، فعلى كل منا ـ أفرادا وجماعات ـ أن يأخذ نفسه ومن يحيط به بذلك كله ..

انه بالعقيدة الحقة ، وبالتضحية بكل عزيز من أجلها ، صار أجدادنا العرب هداة بعد أن كانوا ضالين ، وسادة بعد أن كانوا مسودين ، وهانت عليهم الدنيا وجبابرها بعد أن استعزوا بالله وحده ، وصاروا قادة العالم الى الخير وحياة العز والكرامة والمجد ..

وبعد العقيدة الحقة ، لابد من العمل لتكون شريعة الاسلام هى المصدر الاول لكل قوانيننا الوضعية ، فقد صلح المسلمون بهذه الشريعة الأصلية الخالدة قرونا طويلة ، ولا تزال صالحة اليوم وفى كل زمان ومكان لتكون هى الحكم فى كل أمورنا الخاصة والعامة ، وفى كل علاقاتنا على اختلاف ضروبها وتعددها ..

ان هذه الشريعة المجيدة هى التى أعطت للمرأة حقوقها وجعلتها على قدم المساواة مع الرجل ، اللهم الا فيما يقتضيه اختلاف النوع والطبيعة ، وهى التى أخذت للضعيف حقه من القوى ، وهى التى جعلت الوالى لا هم له الا العمل لصالح من جعلهم الله تحت ولايته ، وهى التى بينت ما لكل فرد وجماعة من حقوق وواجبات على نحو أصيل غير مسبوق ..

ورسالة الرسول العظيم الذى نحتفل هذه الايام بذكرى رسالته العظمى ، كانت مع هذا وذاك كله رسالة أخلاق ، هذا الرسول المصطفى الذى أدبه ربه فأحسن تاديبه ، وقال فى شأنه :

« وانك لعلى خلق عظيم » ..

فمن قيامنا حق القيام بهذه الذكرى الخالدة أن نعمل على أن يأخذ كل فرد من المسلمين نفسه بالاخلاق النبوية التى كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن مثلا لها ، والتى سار عليها صحابته الأكرمون رضى الله عنهم فسعدوا وسعد الناس بهم وبسيرتهم فيهم ..

ان علينا أن نعمل على أن يتميز المسلم بين أهل الشك بايمانه ويقينه ، وبين الجبناء الخائفين بشجاعته ورجولته ، وبين عباد الرجال والاموال والشهوات والاهواء بتوحيده الخالص وتجرده من الشهوات المردية المهلكة وبين أهل الاثرة بايثاره وعلو نفسه ..

وان علينا أن نعمل على أن يفهم العربى والمسلم أن دوره فى هذه الحياة هو دور الامامة والتوجيه ، لا دور التقليد والاتباع ، وأن عليه اذا تنكر له الزمن وعصيه المجتمع الفاسد أن يثور ليقيم العوج ويصلح الفاسد ..

ثم علينا بعد هذا كله أن نكتب كتبا واضحة عن الاسلام الصحيح من كل نواحيه : عقيدة ، وشريعة ، وأخلاقا ونظما ، ونترجم هذه الكتب الى كل اللغات ، ونوزعها فى جميع أقطار الارض . وبذلك نكون قد تبينا حاجات كثير من الناس الذين يسمعون عن الاسلام ولكنهم لا يعرفونه ، والذين يطلبون هذه المعرفة بكل سبيل ، حتى لقد سألنا الكثير منهم ونحن بأوروبا عن الوسيلة الممكنة لهم التى بها يقفون على الاسلام وتراثه وخصائصه ..

وقد طالبت بهذا فى مناسبات عديدة هنا بمصر ، ووجهت النداء الى كثير من الهيئات الرسمية وغير الرسمية التى من واجبها العمل على نشر الاسلام ورسالته ، ولكن دون أن أظفر حتى اليوم بمن يتبنى من القادرين هذه الفكرة ويعمل على تنفيذها ..

وبعد ، أنه بهذا وذاك ينبغى أن نحتفل بذكرى ميلاد الرسول وهجرته وبهذا نكون قد عملنا على التعريف الحق بالرسالة الالهيه العظمى ، وبذلك نخرج من تبعة التقصير ونحمل الخير الى الناس جميعا « **والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ..** »

محمد يوسف موسى